

في النقد الأدبي

للأستاذ اسماعيل مظهر

العصر الذي نعيش فيه عصر قوامه النقد . حتى لقد قال « إدورد كيرد » وهو من الفلاسفة المعاصرين في أول كتابه عن فلسفة كُنْت : إن النقد هو الهدى الروش القدسة ، ومنها عرش الدين قائماً من فوق العقيدة ، وعرش القانون قائماً من فوق السلطان والجبروت . فاذا عني أعلام كتابنا بالنقد ، فانما بمنون بشيء قد تفلنل في صميم الحياة الحديثة ، ونفذ إلى أهد غور من أغوار الأشياء الانسانية . وما حفزم إلى الكلام في النقد ، وفي النقد الأدبي على الأخص ، إلا شعورم — وقد رككت حركة النقد — بأن في الجو الأدبي فراغاً جعلهم يستوحشون من الحياة التي يحبونها ، وجملهم يستقدون شيئاً آنسوا فيه حياة ألفوها . على أنى لحظت في زعة الكتاب الذين عالجوا هذا الموضوع شيئاً أو أشياء ، على كبير علاقتها بالنقد الأدبي ، وعلى عظيم خطرهما ، لم يمرض لها أعلام كتابنا ولو بإشارة ، ومن طرف خفي ، كأن الكلام في هذه الأشياء صير على النقد أو هي من الأشياء التي يجب أن تخرج من مجال النقد ، وكانت هذه

بين اللغة والعلوم الأخرى يبنى أن يراعى في التربية والتثقيف . فكما لا يجدي تلقين القوانين الدينية والتعاليم الشرعية في تكوين الضمير وتربية الماطفة الدينية . وعصمة الرجل عن الزلل في الحياة ، كذلك لا تنفي القواعد النحوية شيئاً في عصمة اللسان وتصحيح الكلام

وبعد فلا بد أن نكرر القول بأننا لا نريد النض من مكاة النحو وخطورة درسه في اللغة العربية ، بل إنا لنراه — مستيقنين — في المكان الأول منها ، باعتباره البين لنظائرها ، والنكاشف عن قوانين التركيب فيها ، وقد خطا النحاة منذ أول العهد بالنحو ، خطوات موقفة في هذه السبيل ، رغم ما غلب عليها في المهود الأخيرة من الشطط والتكلف والتمدن عن روح اللغة . وقد خطت الجامعة في العصر الحديث — في دراسة النحو — خطوة جديدة مسددة ببيلة ، نرجو أن تكشف عنها الأيام القريبة المقبلة إن شاء الله تعالى . محمد طه الهاجري

الظاهرة فيها كتبوا بنية جلية ، حتى لقد خيل إلى أن ما كتب في النقد جدير بأن ينقد ، وخايق بأن يحلل تحميلاً لا هوادة فيه . ساءلت نفسي : أناحية النقد الأدبي وحدها هي الجديرة بالتقدير والوزن ، أم إن ناحية النقد العلمي والفلسفي لها من المكاة والشرف ما يجعلها خليفة بأن تساوى النقد الأدبي قيمة ووزناً ؟ ولم نخص النقد الأدبي وحده بقسط من العناية يستوفى كل جهودنا العقلية ، ولا ننظر ولو التفاتاً وبقليل من الاكتراث إلى النقد العلمي والفلسفي ؟ لأن الأدباء كثيرون ، والعلماء والفلاسفة قليلون ؟ كلا وإنما السبب أن عقليتنا لم تتكون بمد التكون العلمي ولا التكون الفلسفي . وهذا التكون سابقة يبنى أن تسبق في الحياة العقلية ظاهرة النقد ، في مجال ما من مجالات الحياة الثقافية . ذلك بأن وجود العلماء لا يكفي في تكوين العقلية العلمية ، ولا وجود الفلاسفة بكاف لتكوين العقلية الفلسفية

ثم ساءلت نفسي : ألدنقد موانع ؟ أعتننا من النقد عوامل خافية ؟ أعتننا من النقد عوامل تقليدية ؟ أعتننا من النقد عوامل اقتصادية ؟ أعتننا من النقد عوامل سياسية ؟ أعتننا من النقد عوامل نفسية ؟ وهل يمكن أن يفلت النقد من أثر هذه العوامل ؟ وبعد أن أطلت النظر في كل سؤال من هذه الأسئلة ، بل إن شئت فقل في كل ممضلة من هذه المضلات ، حكمت بأن هذه الموانع كائنة ، وأن بعضها أقوى أثر من بعض ، وأن الناقد لن يفلت من دائرتها ، أو يخرج من أقطار هذه الأرض منبوذاً مدحوراً ، وبعد هذا وذاك هل وضعتنا للنقد قواعد يقوم عليها هيكله ، وتشيد من فوقها أركانها ؟ ألتنا في النقد مذاهب مقررة يتبعها الناقدون ؟ وهل لنا في النقد قواعد تحدد للنقد حدوده ، وترسم تخومه ، وتبين اصطلاحاته ، شأن كل الأشياء العلمية والأدبية التي لها أثر في تطور العقلات والمقولات ؟

كلا . ليس لنا في النقد مذاهب ، وإنما اتبعنا إلى الآن في النقد طريقة ميزانها الذوى والشعور ، وهي طريقة إن مال ميزانها نحو العيين قيد شعرة كانت إفراطاً في المدح والتعريض ، وإن مالت نحو الشمال شعرة كانت تفریطاً في كل ما يقتضى النقد من حكمة في تقويم الآثار الادبية بميزان صادق للدلالة على قيمة ما في كفتيه . وجلة الأمر ألتنا ذهبنا في النقد المذهب التقديرى ، ولم نزرع إلى المذهب التقريرى . ذلك بأن المذهب التقديرى مذهب سهل المأخذ ، ليس المنهى . مطواع للأهواء ، يسع الأثر الذى تجلبه

من اختصاصهم ، وأن الكاتب الأدبي عندنا يرى أنه يستطيع أن ينقد في يوم واحد كتاباً في تاريخ نابليون ، وكتاباً عن جزيرة العرب ، وديوان شعر ! ولا مرية في أن الأستاذ على حق فيما يقول . أما السبب في هذه الفوضى الغامرة فالذي أذهب إليه من أن النقد عندنا قد نزع النزعة التقديرية دون النزعة التقريرية . وهل أسهل من أن أقول إن كتاباً عن نابليون ضيف الأسلوب ، وإن كتاباً عن جزيرة العرب ثقيل الظل ، وإن ديوان شعر بارد الأنفاس ؟ ولكن غاب عن الأستاذ حقيقة أخرى هي أن الأدب والنقد عندنا ، لقلة ما لهما من ضوابط وقواعد ، قد هيا للكتاب والنقاد سبيل الانسلاخ في هيئات جديدة تقتضيها ظروف الأحوال . فهذا كاتب سياسي أصبح مؤرخاً . وذلك مؤرخ أصبح شاعراً . وثالث كان أديباً فأصبح سياسياً ، ثم ارتد ناقداً ، ثم انسلخ في صورة ديماجوج ، يضرب على نفثات تحبها آذان الجماهير . ورابع كان صحفياً فأصبح مصلحاً سياسياً . وخامس كان لا شيء أصلاً فأصبح علماً يشار إليه بالبنان في جميع ما تتخيل أن إنساناً يستطيع أن يبرز فيه من علم وفلسفة وأدب وفن ، وما الله به أعلم من مظاهر الكفاية . وإن واحداً صار نصير الإنسانية ، وآخر أصبح سادن الدين ، وثالثاً أبا الحرية ، ورابعاً حافظ الديمقراطية ، إلى غير ذلك من الألقاب التي تذكر المرء بألقاب أهل الدول إذا ارتج أمرها وكادت تميد بها الأرض ، فيعمد خيال أهلها إلى الألقاب يضمخون منها بما يخيل إليهم أن فيه المنجي والملاذ

أليست هذه ظاهرة من ظاهرات الفوضى العقلية الدالة على أن النقد عندنا إنما يقوم على نزعة تقديرية لا تزن الأثر ولا تزن الشخص ، وإنما تزن الأثر والشخص على مقتضى الظرف الحاصل ؟ ولو أننا نزعنا في النقد النزعة التقريرية مؤمنين بمدد ثابت من الحقائق والنظريات والمثاليات ، مؤتمين بما توحى به من آداب اجتماعية عليا ، إذن لاستطعنا أن نقضى على هذه الفوضى الغامرة التي تكاد تبطلنا لججها

وما كان لي أن أتكلم في موانع النقد في بيتنا الجديدة ، اللهم إلا أن أكون قد فذقت بنفسى في أنون تترع نيرانه الشوى . فليتصد للكلام في هذا غيرى ممن لا حاجة به إلى شواء

اسماعيل مطهر

الصداقة على شعور الناقد ، ويسع الأثر الذي تخليه السداوة والبغضاء على انفعالاته . وهو فوق كل هذا مذهب بُدأنى لا ضوابط له ولا قواعد ، ولا نظريات ولا حقائق ؛ وبالأحرى تقول إننا مضينا نقداً حتى الآن ورائدنا في النقد الأثر الذي تتركه في أنفسنا مختلف النتوجات الأدبية ، بما فيها من علاقات ذاتية وميول وعواطف وأخيلة وأحاسيس ؛ وعلى الضد من هذا كله مذهب النقد التقريرى القائم على نظريات أو حقائق لها حدود مضبوطة ومصطلحات معينة ونماذج يمكن أن ينسج على منوالها ؛ ناهيك بأن مذهب النقد التقريرى قد تكون له في بعض الأحيان فكرة عامة شاملة ترى إلى غاية معينة . فانك إن نظرت مثلاً في محاورات سقراط التي أتمتها تلاميذه في كتبهم ، تبينت من خلالها فكرة جامعة وغاية أخيرة ترى إليها ، هي التي أبان عنها كل الإبانة في دفاعه عن نفسه أمام قضاة قبل الفتوى بادائه . وهندى أن محاورات سقراط ، أول ما وضع في تاريخ الآداب الإنسانية من نقد قائم على المذهب التقريرى

ولقد ترى أثر هذا الرأي — رأى أننا نقداً على المذهب التقديرى لا على المذهب التقريرى — ظاهراً جلياً في كل نواحي النقد ، لا في النقد الأدبى وحده . فان نزعنا هذه قد تجلت بينة في النقد السياسى على الأخص ، حتى لقد اتهم النقاد السياسيون في مراميمهم وأوذوا في سماتهم السياسية ، لا لشيء إلا لأنهم نقدوا على غير مذهب ، وكتبوا على غير نظرية سياسية ، ومضوا يتكلمون في السياسة وليس أمامهم غاية عامة نهائية يرمون إليها ، اللهم إلا أن تستقر الأحوال على صورة تفر ما كان قائماً قبل انقلاب حدث ولو كان ما يطلب الرجوع إليه من نظام فيه من أوجه النقد ما لا يقل قيمة أو أثراً عما يراد إدالته من نظام قائم . على أن ما ترى في النقد السياسى من شيوعية في المرائى واستهتارية في الغايات ، قد تراه بذاته في أكثر النقاد الأدبية التي تجرى بها أقلام الذين يتصدون للنقد في هذا العصر . وما السبب في هذا إلا أننا نزعنا في النقد النزعة التقديرية ، فأوسعنا المجال للخيال دون العقل ، وفتحنا الباب على مصراعيه للذوق وحده ، من غير أن نجعل للذوق ضابطاً من القيود المنطقية أو النظريات المقررة أو الحقائق الجامدة

لقد غاب الأستاذ أحمد أمين على النقاد أن ينتقدوا ما ليس